١٩٩٧٠٢٠٨_٠٠٠٣@-٢

المدينة المخطوفة

ميشال سورا

شهادة الموت وظلال الحياة

فيلم عمر أميرالاي "في يوم من ايام العنف العادي، مات صديقي ميشال سورا..."، يفتح الجرح، على السؤال المؤجّل.
هل نجرؤ؟
هل نستطيع العودة الى ذلك السؤال المأسوي، الذي دمّر انسانيتنا خلال الحرب؟
لم يكن موته مجرد مصادفة.
صحيح انه مات في زنزانة الخطف، بسبب اصابته بالمرض. لكن مرضه لم يكن مصادفة.
كان كأنه آخر القافلة، رغم انه اراد ان يكون الاول في قافلة جديدة!
أخذه حبه وشغفه والتباسه الى حيث تكون النهايات شبيهة بالبدايات، فمات.
كأن خياره قتله.
او كأنه كان موتاً يذكرنا نحن جيل الحرب وضحاياها، بأن الضحية هي الاقوى.
ولاننا نختار الضحية، اي نختار حقيقتنا التي طمسها الكلام والجموح والنسيان، اختار عمر أميرالاي، مخرج "مصائب قوم"، و"يوم في حياة قرية سورية"، و"الدجاج"، ان يوجه عبر هذا الفيلم الوثائقي، الروائي، (عرض على شاشة تلفزيون (آرتيه) في باريس، وقدم له عرض خاص في "مسرح بيروت"، امس الجمعة ٧ شباط ١٩٩٧، السؤال عن معنى الصداقة والخطأ والذاكرة.
في هذا الملف الذي ينشره "الملحق"، كتحية متأخرة لذنوب الحرب وآثامها، ولذكرى هذا الباحث وعالم الاجتماع الفرنسي، الذي كان واحداً من ضحايا وحشية الحرب وحماقاتها، نقرأ حواراً مع عمر أميرالاي ومقتطفات من شهادات جان آنواييه (مدير مركز الدراسات والابحاث عن الشرق الاوسط المعاصر C.E.R.M.O.C.) وروجيه نبعه وجان - بول كوفمان (زميله في زنزانة الخطف) وماري سورا، بالاضافة الى نص رسالة كان ميشال بعث بها الى زوجته من معتقله، ومقال نقدي لمحمد سويد.
ونحن في "الملحق"، نضم صوتنا الى اصدقاء ميشال سورا، الذين لا يطالبون اليوم، بأكثر من حق اهله وذويه في استعادة جثته، كي ترتاح روحه، وتكتمل سيرته.

"الملحق"

عمر أميرالاي "في يوم من ايام العنف العادي..."

حوار

المثنّى الشيخ عطية

"في يوم من ايام العنف العادي مات صديقي ميشال سورا"...، وفي يوم تراجيدي لا يليق سوى بابطال الملاحم الشكسبيرية، مات ميشال على ايدي اصدقائه العرب الذين احبهم.
في يوم من ايام الحزن البشري العادي، صرخ الصديق تحت وقع رماح الصدمة الاولى: "ما من جاحد مثل العرب". غير ان ميشال نفسه لم يصدّق أنّ ما يحدث له هو ما يحدث فعلاً، وبقي مصراً على الاعتقاد حتى لحظة مفارقة الروح، ان الامر مجرد سوء تفاهم، فالصديق لا يموت بيد الصديق.
في يوم من ايام العنف العادي، عام ١٩٨٦، مات الكاتب والباحث الاجتماعي، الفرنسي وصديق العرب، ميشال سورا على ايدي خاطفيه، وكما يكرر لوركا تراجيديا المصير الذي لقيه، لم يعرف احد منذ ذلك الوقت، غير الجناة، المكان الذي استقر او لم يستقر فيه جثمانه.
من البحث عن رفات صديق بريء، مات غيلة في زوايا مدينة ممزقة لا تعصم غير العنف، الى البحث عن ظلال لهذه الرفات داخل القلب، أين استقرت واين تناثرت، وعبر عشرة اعوام من ١٩٨٦ الى ١٩٩٦، قطعة ثاكلة في موزاييك فوضى مرحلة عانت فيها الثقافة العربية شراسة رماح حصارها، وانعكس الحصار فيها احباطاً وموتاً بطيئاً لأرواح مثقفيها... بحث المخرج السينمائي السوري عمر أميرالاي، صديق ميشال سورا، عن المنهج المخاتل الذي يحاول ان يقتل الروح في داخله. ولان واقع المرحلة قاس ولا يقدّم يداً صديقة لوقف موت الروح، استعان أميرالاي بروح صديقه الراحل والتي كانت حاضرة، ليستحضر، كما "هاملت"، شبح البريء المغتال، ولتنبض الجملة الاولى ندماً على التقصير في البداية، وامتناناً للآخر الأممي الذي شارك شعبه المصير، وخوفاً من مواجهة الذات، عبر مواجهة روح ميّت تطلب قبراً لجسد يليق بما كان عليه صاحبه.
ومنا حوار مع المخرج:

زاوية الرؤية

* **"ميشال... لقد سرقت موتي"، هو العنوان الاول الذي اخترته في بدء رحلتك لانجاز فيلم عن صديقك ميشال سورا، ثم ما لبثت ان استبدلته بعنوان آخر عند انجازه وهو "في يوم من ايام العنف العادي، مات صديقي ميشال سورا...". ما الذي تغير فعلاً بين هذين العنوانين؟**

– تغيرت في الواقع زاوية الرؤية للعلاقة التي كانت تربطني بميشال. وقد أدى الزمن الذي تطلبه انجاز هذا الفيلم، دوراً في تطوير هذه العلاقة، من حيز الاحتقان الاول للنفس بمشاعر الألم والضغينة، الى حيز السبر الوجداني الهادئ والاعمق لجوهرها الانساني. فالألم غالباً ما يعطل قدرة البصيرة على تمييز الابعاد الحقيقية للاشياء، ناهيك عن نزعة الانسان المصاب الطبيعية الى المغالاة في الحزن.

في امتحاني لعلاقتي بميشال عبر السنين العشر التي فصلتني عن لحظة رحيله، لمست كيف يمكن الفقد ان يدافع عن نفسه وهو يقاوم عوامل الزمن، وكيف ان علاقتي بالحياة والاصدقاء والآخرين في الوقت الراهن ما زالت تؤكد شدّة هذا الفقد، الذي لم تعوضه منذ ذلك الوقت علاقات أخرى.

تبدّل عنوان الفيلم بحكم تبدّل قراءتي لطبيعة العلاقة التي كانت بيني وبين ميشال، في ضوء عملي على مشروع الفيلم. وقد اربكني تناول هذا الموضوع الى درجة انني كنت على وشك التخلي عنه تحت ضغط الحال الاخلاقية التي كانت تؤرقني، وهي استحالة ان يرتقي التعبير عن هذه الصداقة الى المستوى الذي يليق بها فعلاً. ان اكتشافي المتأخر قيمة هذه الصداقة وعمقها، اضافة الى احساسي بأن شيئاً ما قد مات في داخلي لحظة اعدت اكتشافها، قد اديا الى شلّ الرغبة عندي في الاستمرار، وجعلني اتهيب فترة من الزمن الاقدام على هذا العمل.

> **"ان مواجهة النفس في مسألة موت الآخر هي اعتراف بموت شيء فينا. يباس غصن من اغصان مشاعرنا. انقطاع ساقية ظلت حتى الامس القريب تروينا من ماء وجودها. انما انفلات الذات عن جاذبية الحياة وتلاشيها في العدم"**

ان مواجهة النفس في مسألة موت الآخر، هي اعتراف بموت شيء فينا. يباس غصن من أغصان مشاعرنا، انقطاع ساقية ظلّت حتى الامس القريب تروينا من ماء وجودها. انما انفلات الذات عن جاذبية الحياة وتلاشيها في العدم.

تغيّر عنوان الفيلم أيضاً لأني توصلت بعد لأي الى تجاوز الشعور بالذنب حيال المصير الذي لقيه صديقي، والذي ظلّ يطاردني كلّ هذه الاعوام. شعور بأن اصدقاء ميشال العرب لم يفعلوا ما فيه الكفاية ليحموه من عوائد الزمن العربي الرديء، ويحولوا – بالحزم الذي كانت تقتضيه تلك المرحلة – دون اقترابه من العتبات الممنوعة، التي كنّا نعلم نحن في حكم غريزة الانتماء الى المنطقة ضريبة تجاوزها.

إذاً، كان لا بدّ من التخلص من هذا الشعور كي استعيد علاقتي الطبيعية بالفقيد، والتي من دونها – ومن دون استرجاع جثمانه أيضاً – لن يكتمل الحداد عندي، وعند ذويه خصوصاً.

الروح المشتاقة والجسد المرتهن

* **أليس في غياب جثمان الصديق ما يخدم الهدف الذي يسعى اليه الفيلم، وهو ان قبر الصديق، كما قبر الشاعر لوركا، بقي مجهولاً ليدفع البشر أبداً الى التحديق في دم البريء؟**

– لو خيرت بين استعادة جثمان صديقي وعمل فيلم عنه، لكنت تمنيت لروحه المشتاقة ان تستعيد جسدها المرتهن. طبعاً، يبقى ان كلّ محاولة لاستحضار ذكرى فقيد في عمل فني، هي بلا شك تحرر من الألم والأسى. خطوة، او مشروع، لافراغ النفس من ثقل حال ضاغطة وموبقة تشوّش القدرة على مواصلة الحياة ومصالحتها، وتشوهها. انها حال بشرية انانية مشروعة، لا تجرد صاحبها في الضرورة من مشاعره الانسانية. انما أيضاً لحظة صحو بعد موت خاطف: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا"، على قول الرسول الكريم.

تاج الحقائق

* **نستطيع ان نفهم تحجر الدمع، والمعاناة من ثقل حملنا جثة حبيب لم نستطع منع موته، او عجزنا عن عمل ما، يعيد نبض ابتسامة له عبر الزمن بعد الموت، ونستطيع ان نفهم ان العمل الابداعي هو ازاحة لثقل الضمير في جانب منه عن كاهلنا المتعب، ونستطيع ان نعطي هذه الازاحة فعل صرخة شهادة، او ادانة للواقع الذي غيب الصديق. نستطيع ان نفهم أيضاً ان السينما هي محاولة للتحديق في وجه الموت، ولانتزاع نبض الحياة من بين اسنانه. كيف تشعر بعد هذه الازاحة في عمل الفيلم. هل أنت مرتاح؟**

"في يوم من أيام العنف العادي، مات صديقي ميشال سورا..."
الاخراج: عمر أميرالاي.
التصوّر: عمر أميرالاي – محمد ملص.
التصوير: عبد القادر الشربجي– آرليت جيراردو.
الصوت: اميل سعاده.
المونتاج: شانتال بيكيه.
الانتاج: القناة الثقافية الاوروبية (آرتيه)، ليل فيلم، مرام للسينما والتلفزيون، ١٩٩٦.
شهادات: ماري سورا، جان بول كوفمان، روجيه نبعه، وجان آنواييه. ٥٠ دقيقة، ١٦ ملم.

19970208-00036-2

– لا راحة لامرئ الا بلقاء تاج الحقائق، وهو الموت طبعاً. في انتظار هذه اللحظة، يحوك الكائن البشري كذبة الحياة ليصطاد بها بعض اللحظات السعيدة الواهية. المصيبة هي انه كلما ازداد وهماً بوجودها، ازدادت شهيته لها، وقد لا يتوانى في بعض الحالات – لضرورة البقاء طبعاً، على قوله – ان يقتات من حيوات بني جنسه!

الفيلم الذي حققته هو، في جانب منه، محاولة يائسة لترويض النفس على مواجهة فكرة الموت.

*** ماذا عن ادوات الموت التي ألقت بصديقك في فم الغياب؟**

– مع الفراغ الذي يعقب الموت، غالباً ما تضمر التفاصيل وتذبل اسباب العلاقة مع الحياة وجاذبيتها، ويصبح العمل الابداعي في هذه الحال تركيزاً على القيم الحية والثابتة في الحياة، كالقيم الانسانية والمعرفة والصداقة. وهذا ما حاولت التعبير عنه في فيلمي. فالى جانب محاولتي حلّ مشكلة علاقتي بموضوع الموت، وجدت نفسي فجأة امام مسؤولية اخرى وثيقة الصلة بذاكرتنا الجمعية، وهي التنبيه من خطورة الاستسلام لنزعة المغفرة والنسيان.

اردت ان أؤكد ان الجريمة يجب الا تغتفر، ودماء الابرياء هي وصمة لا يمكن النسيان ان يمحوها. فالنسيان، الذي هو موت أيضاً في معنى ما، كثيراً ما يبرر للماضي آثامه تحت شعار "عفا الله عمّا مضى". شعار قاصر جعلنا امة تعاني على مرّ العصور انقطاع الصلة بعبر تاريخها ودروس تجاربها. ان يتعايش الظالم والمظلوم، الجاني والضحية، كأن شيئاً لم يكن، هو أسوأ ما يمكن ان يحدث لمجتمع يحاول ان ينضج، وان يحسم علاقته بماضيه، ليستوعب حاضر مشكلاته.

الخلاصة أن على الثقافة والفن الا يغفرا للماضي ذنوبه، حتى تتخلى مجتمعاتنا القاصرة عن التهرب من مواجهة عجزها عن محاسبة تاريخها.

الوطن بالتبني

*** في معرض حديثنا عن الآخر، نعلم ان حملة الحلم النضالي الأممي تميزوا في دواخلهم بمسحة من البراءة الانسانية او الطفولة، وقد عرف ذلك عن سورا أيضاً. هل تطرقت الى هذا الجانب عنده؟**

– اختلق ميشال لنفسه صورة عن طفولته، هي في الواقع مرآة لصورة مشروعه الوجداني والثقافي. اذ كان يردد دائماً على مسامع اصدقائه رواية عن واقعة ادعى انها حقيقية، وانه عاشها شاهداً يوم كان طفلاً في بنزرت في تونس. ففي طريق عودته من المدرسة الى البيت، هاجم رجال كوماندوس فرنسيون مقر الاتحاد العمالي التونسي، الذي اعتصمت في داخله مجموعة من الثوار التونسيين، وقتلوهم عن بكرة ابيهم، الا ان والدة ميشال نفت صحة هذه الرواية في شكل قاطع، واكدت ان طريق المدرسة الى البيت لا تتقاطع في اي حال من الاحوال مع المكان الذي جرت فيه الواقعة.

هذه الرواية على لسان ميشال تلخص في الواقع علاقته الملتبسة بالعالم العربي. والمشهد الدموي الذي تحدّث عنه، والذي نحته عميقا في ذاكرته، جعله يشعر دائماً بعدم الاندماج في مجتمعه الام، عندما اضطر للانتقال اليه مع خروج الفرنسيين من تونس. لذا كان يردد دائماً ان هناك دماء عربية تلطخ ايدي ابناء وطنه. ولم يتوان كلما سنحت له الفرصة عن اختلاق الاسباب التي تعيده الى حظيرة وطنه بالتبني، اي العالم العربي، حيث يستطيع التكفير عن الظلم الذي الحقه الفرنسيون في حق اصدقائه العرب.

لقد كان العالم العربي بالنسبة الى سورا جزءاً لا يتجزأ من كيانه الروحي والثقافي، وقد قاده تماهيه العالي به الى حد الموت في احضانه.

*** هل وجد سورا راحته في هذا الاندماج؟ اتذكر من ثوار الحلم الأممي فرانك او ريجيس دوبريه نفسه، في روايته "غير المرغوب فيه"، الذي عانى غربة مزدوجة، هي غربته عن مجتمعه الغربي الرأسمالي، وغربته داخل مجموعة ثوار أميركا اللاتينية الذين كان يقاتل معهم.**

– ذهب ميشال ابعد واعمق من ذلك. فالأممية عنده كانت مجرد واسطة اتاحت لمشروعه الوجداني ان يتحقق عبر الالتزام السياسي، ولضميره المعذب ان يتصالح مع نفسه. فحاله مرتبطة اساساً بتشكل شخصيته، بدءاً بطفولته الجريحة وانتهاء باللحظة التي ظل يصر فيها على ان ما يحدث له على ايدي خاطفيه لم يكن سوى مجرد سوء تفاهم. لقد ارتضى لنفسه ان يموت على ايدي العرب، كعربون محبة لهم.

*** تلك وقفة على صليب. موت**

رياضة مستوحدة.

"لا راحة الا بلقاء تاج الحقائق، اي الموت، والفيلم محاولة يائسة لترويض النفس على مواجهة فكرة الموت"

تراجيدي لا اجد له تفسيرا سوى في وعيه العالي لواقع الصراع الذي وجد نفسه فيه.

– نعم، هناك تصوف في علاقة هذا الانسان بمعشر العرب، رغم وعيه التام بأن بينهم أيضاً ظلاّماً واشراراً.

*** عودة الى الفيلم، اذ من الملاحظ انك ادخلت عناصر روائية على النسيج الوثائقي. ما الغاية من هذه التوليفة بين الروائي والوثائقي، وهل يمكن اعتبار ان العنصر الروائي في الفيلم توثيق لعالمك الداخلي؟**

– العنصر الروائي فرض نفسه على الفيلم منذ البداية لعدم توافر مادة وثائقية كافية عن شخصية الفيلم الرئيسية. والتقى هذا مع رغبتي في التعاطي مع المجسدات الروحية للشخصية. فالفيلم حال روحية، لا روائية ولا وثائقية. انه استحضار لروح صديقة، اعتمدت الايحاء في صوغها الاسلوبي والبصري.

"كان العالم العربي بالنسبة الى سورا جزءاً لا يتجزأ من كيانه الروحي والثقافي، وقاده تماهيه به الى حد الموت في احضانه"

الحماقة البشرية

في احد اقبية الحماقة البشرية الرطبة والخانقة
في جحرٍ من جحور التعصب الأعمى
في بيروت المستباحة
في يوم من ايام العنف العادي من عام ١٩٨٦
مات صديقي ميشال سورا وحيداً
رهينة بين أيدي خاطفيه
مات بعدما خانه كبده
وقتله جحود من كان يدافع عن قضيتهم.

ان شعوري بافتقاد صديقي ميشال هو الذي دفعني في الواقع الى انجاز هذا الفيلم، الذي أردت من خلاله ان انوّه بصداقتنا المشتركة وبعدها الرمزي. انه تعبير عن افتقادي الانسان، وكذلك الزمان الذي أتاح لي معرفة هذه الصداقة. فبعد انهيار جسور التواصل والثقة بين الغرب والعالم العربي، بعد حرب الخليج، صار الامر بالنسبة اليّ اشد صعوبة وبعداً من اي وقت. انه الخوف من الا يتكرر معي مثل هذا التماس الانساني العميق، الذي جمع في يوم من الايام انساناً غربياً اراد ان يفهم الشرق، هو ميشال، وآخر عربياً يحاول في دوره ان يفهم الغرب. ليس الخوف في المعنى المطلق للكلمة، وانما في المعنى الذي استطاع ان يجسده ميشال خير تجسيد، وذلك عبر علاقته العميقة والصادقة بالعالم العربي الذي احبه، وكذلك باعتبار انه احد آخر ممثلي مدرسة الاستشراق المضاد.

باسم اي قيمة، وفي ذكرى اي جرح، ولهثاً وراء اي حلم، انخرط ميشال بهذا العمق في وجدان العالم العربي؟

هل كان مجرد باحث، ام كان من طينة هؤلاء الذين يقرر لهم شجنهم مصيرهم؟

قبل ان يكتمل السؤال، وينجز ميشال ما بدأ به، كانت حماقة البشر له في المرصاد، لتجهض الجواب وتقتل الحقيقة في رحم الاحتمال.

ان الفيلم، اذ يحاول الاجابة عن بعض هذه التساؤلات، يأبى الكشف عن الملابسات التي احاطت موت ميشال، تاركاً ذلك الى ضمير خاطفيه، مطالباً اياهم باستعادة رفاته، التي يصرون على ان تبقى رهينة في ايديهم حتى بعد مماته!

عمر أميرالاي

مؤلفات ميشال سورا

كتب

"Des hommes dans le soleil, traduction et présentation de trois nouvelles de Ghassan Kanafani", Sindbad, Paris, 1977, 202p.
- "Etat et secteur public industriel en Syrie", publications du CERMOC, Beyrouth, 1979, 137p. (en collaboration avec Jean Hannoyer).
"Les Frères musulmans" (1928-1982), Gallimard, Archives, Paris, 1983, 238p. (en collaboration avec Olivier Carré)

مشاركة في اعمال جماعية

."La Syrie: les popuLations, la société et l'Etat", in La Syrie d'aujourd'hui, sous la direction d'André Raymond, Editions du CNRS. Paris, 1980, p.87-140.
- "Etat et industrialisation dans l'Orient arabe (les fondements socio-historiques)", in Industrialisation et changements sociaux dans l'Orient arabe, CERMOC, Beyrouth, 1982, p. 27-67.
- "L'utopie islamiste au Moyen-Orient arabe et particulièrement en Egypte et en Syrie", in L'Islam et l'Etat dans le monde d'aujourd'hui, sous la direction d'O. Carré, PUF, Paris, 1982, p. 20-29.
. "Le quartier de Bab Tebbâné à Tripoli (Liban): étude d'une açabiyya urbaine", in Mouvements communautaires et espaces urbains au Machreq, CERMOC, Beyrouth, 1985.

مقالات

-"Vers un thèatre arabe solidaire", Peuples, méditerranéens, 2, janvier 1978, p. 25-52
- "Le rôle de Lyon dans l'installation du mandat francais en Syrie: intérêts économiques et culturels, luttes d'opinion (1915-1925)", Bulletin d'études orientales XXXI, p. 129- 162, Institut francais de Damas, 1979.
- "Etat et paysans en Syrie", Revue de géographie de Lyon, 1979, p. 257-270. Actes d'une table-ronde organisée sur ce thème par l'Université de Lyon II.
- "L'agitation confessionnelle en Syrie", Le Monde diplomatique, octobre 1979.
- "La société syrienne contre son Etat", Le Monde diplomatique, avril 1980.
- "Caste, confession et société en Syrie: Ibn Khaldun au chevet du "progressisme" arabe", Peuples mediterranéens, 16, juillet-septembre 1981, p. 119-130.
- "L'orientalisme, L'Orient créé par l'Occident, Critique de l'ouvrage d'E. Said". Revue d'études palestiniennes, 1, automne 1981, Ed. de Minuit.
- "The importance of Bodyguards", Merip Reports, 110, novembre-decembre 1982, p. 29-31.
"L'Etat de barbarie: Syrie 1979-1982", Esprit, novembre 1983, p. 16 30.
- "Tripoli: le dernier bastion de Yasser Arafat", Maghreb- Machreq, 102, octobre - decembre 1983, p. 109- 110.
"Terrorisme d'Etat, terrorisme contre l'Etat: le cas syrien", Esprit, octobre 1984, numero special sur le terrorisme, p. 188-201.
"La ville arabe orientale", Esprit, fevrier 1986, p. 9-14.